

بغير عادي الذين يستحسنون القول فينبغ أن يكتب
أولئك الذين هم أئمة وأولئك هم أولو الألباب

المجلد الحادي عشر
١٣١٥

بؤن الحكمة من يشاء من يؤمن الحكمة قدواتي
عجبا كبيرا ومليذا صكر الأولو الألباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام سوى و « منارا » كمنار الطريق

(مصر الاوطاء - ٢٩ مفر ١٣٢٦ - أول ابريل (نيسان) سنة ١٩٠٨)

كتاب مصر الحديثة للورد كرومر

نظرة إجمالية في الكتاب

أقام لورد كرومر في مصر نحو ربع قرن متصرفا بنفوذ الحاكم المطلق فمرف من أحوال حكومتها وسيرها الاجتماعي ما يعز على غيره من حكام البلاد أو زلائها من الاوربيين ان يعرفوه ثم أودع زبدة ما عرفه في كتاب يدخل في ثلاثة مجلدات طبع اثنان منها وأوصى هو بطبع الثالث عقب موته لانه خاص بحال مصر في عهد الاميرالحال عباس باشا الثاني والظاهر أنه أشد الاجزاء وطأ وأثقل قيلا على مصر والمصريين على ان الجزء الثاني لا نستخف وطأته ، بل لا نطاق كلمته ، فهو قد حكم

لكل الشعوب التي تنبوا ارض مصر وعليها ولكنه حكم على المصريين
لا لهم ولم يحكم عليهم بالمساواة بل فضل القبط على المسلمين تفضيلا من
حيث دينهم ونا فيه من المرونة التي تساعدهم على مجاراة المدينة ما لا يساعد
الاسلام أهله على زعمه

ولم يكف بالحكم في قضايا الشعوب من حيث هو حاكم سياسي
اجتماعي بل حكم ايضا في قضايا الرجال المشهورين الذين عرفهم من بعض
الوجوه وكان حكمه عليهم من غير الوجه الذي عرفهم به اذ حكم على مطويات
المقائد ومكنونات الضمائر وخطرات القلوب

ولم يرضه هذا حتى رفع نفسه الى مستوى الحكم على الاسلام من
حيث هو دين ومن حيث هو شريعة ونظام اجتماعي فحكم من الحيثية الاولى
له وعليه ومن الحيثية الثانية عليه لا له وانتقل من الحكم عليه الى الحكم على
أهله عامة حتى في مستقبل أمرهم فكان حكمه هذا صاخة تصخ المسامح
وقارعة تصدع القلوب بل هو عبرة للمستبرين وموعظة للمصريين
وسائر المسلمين

رأيت حديث الناس في هذا الكتاب يدور على قطبين (أحدهما) الحكم
على شعور الكتاب حينما دون حكمه على المصريين وعلى الاسلام والمسلمين
فأرايت بينهم خلافا في كونه كتب بمداد الحق والحق وقلم الحفيظة والانتقام
من المصريين بما فوقوا اليه من سهامهم ، وصوبوا اليه من اسنة اقلامهم ،
في وقت مفارقتة لديارهم ، وهو وقت ضاق فيه ذلك الصدر الواسع
عن احتمال الانتقاد ، بله الشبهة والازراء ، على أنه قد ظهر ضيق صدر
اللورد قبل ذلك في تقريره الاخير ، ثم في خطبته التي خطبها قبيل الرحيل ،

هذا وأما القطب الثاني لحديث الناس في الكتاب فهو غرضه منه وقد رأيت أهل الفهم والذكاء يقولون من غير مواطأة ولا تقليد إن غاية اللورد من هذا الكتاب هي أن يستل من نفوس أحرار قومه فكرة توقيت الاحتلال، والخروج من مصر في يوم من الأيام، ويقننهم ويقنع أوروبا معهم بأن لا ضمان لحفظ مصالح الأوربيين في مصر بل ولا مصالح المصريين إلا بقاء الانكاز في مصر لأن المصري شديد التمسك بدينه الذي لا يتفق مع المدنية فإن هو تركه واتبع هذه المدنية كما يجب الأوربيون ويبغون كانت مدينته تقليدية لا حقيقية وكان بذلك شرا من المسلم المتدين وأشد عداوة للأوربي والمسيحي ولو غير أوربي ويرون أن تصريحه بعدم استحسان ضم مصر إلى أملاك انكازا وما أظهره من الميل إلى اعدادهم للاستقلال هو من التوبيخ وذر الرماد في العيون وإلهاء المصريين بالأمانى والاحلام. وأصحاب هذا القول غافلون عن طرق الاستعمار الجديدة ومنها حكم البلاد باسم أهلها والرضى بالسلطة الفعلية بديلا من السلطة القولية وقد سبق لنا بيان هذه الطرق في السنة الأولى من المار وفي غيرها أيضا هذه صفة الآراء التي دارت بين الناس في شعور مؤلف كتاب مصر الحديثة وفكره المستولي عليه عند الكتابة وفي غاية منه وذلك ضرب من ضروب انتقاد المصنفات مطروق الأبواب، معهود عند الكتاب، وما ينتقد على هذا الكتاب وهو من أصول الانتقاد استنباط القواعد لاسككية، من شواذ الحوادث الجزئية، ولم يسلم اللورد من ذلك فإنه في المقابلة بين عقل الغربي والشرقي أورد الأمثلة لعقل الشرقي الضعيف

التعظيم والادراك « لاعتقاده بالقضاء والقدر ورضوخه لكل سلطة تتولى أموره » فانه بعد ان دعم الحكم على عقل الشرقي بهاتين العتبتين مثل للحكم الكلي العام بما نص ترجمته
(قال اللورد) « حدث أكثر من مرة ان المتعصب في مصلحة

الحديد المصرية حول الخط والقطار عليه لم يمر الانصفه الى الخط الآخر فادى ذلك الى انقلاب القطار وحدث ايضا ان سائق قطار نسي احبا اى مفتاح يجب ان يحرك لكي يوقف القطار وحدث مرة ان عمال السكة الحديدية قتلوا لانهم ناموا بعد ان وضوا رءوسهم على الخط الحديدي وانما فعلوا ذلك ليشقوا بأنهم يستيقظون على صوت القطار الآتي »

وتقول ان أمثال هذه الجزئيات تقع في أوروبا وفي جميع البلاد من جميع الشعوب وناهيك بالطبقة الدنيا من العمال فان ذكي القطرة عالي النفس لا يرضى لنفسه بأن يكون من أحقر عمال سكة الحديد، وناهيك بالمتدين من أهل هذه المهنة بها والغالب ان يكون أصحاب ذلك الشذوذ الذي ذكره منهم . فحال أمثال هؤلاء لا يصح ان يكون مناط المقابلة بين الشعوب في ارتقاء العقل وملكة النظام فيه . وانما ينظر في حالهم من جهة النشاط في العمل والصبر عليه ولعله لو قابل بين فئمة الأوربيين وفئمة المصريين في هذه المزايا لما قدر ان يخس المصريين حقهم، وان ظن ان القضاء والقدر قد فك باستعدادهم لكل عمل اا ولسي ان أكثر المستخدمين في سكة الحديد من القبط الذين هم على شاكلته في عدم الايمان بالقضاء والقدر واني أذكر له شيئا من بلاد بعض الأوربيين وغفلتهم هو أبعد عن العقل والنظام مما صدر عن صغار فئمة السكة الحديدية في مصر ناقلا إياه عن

كآب صفوة الآعبآر لصدفقه الشفخ مآمد ففرم الشفة السآلر آله آله آله آله
فآه كآب فف الفصل الآف ففقه لفبآز عآدآة آهل فرنسآ و صفآهم مآنصه :
« ومع ذك (آف آنشآر المسآرف) فلآ فزال فف فرنسآ آلفق كآفر
علف السذآآة والآهل . و دونك آكآة ظرففة فففس علفبآ مآقرب منبآه
ففف سنة ١٢٩٧ هـ ١٨٨٠ م كآز آآء آآآب العمل بآلفء مشآلآ آآة
« بآرفس » و كآز له ابن مشآل آآة « برءو » فلم فوفر الآبن من كسبه
مآفشآرفف بآ آذآء فآرسل آف آفبه فشآكف له القل و فطلب منه شراء آذآء
له فآشآراء له و آمله فف الطرفق وهو مفكر فف كفففة ففصآله آفبه ففببآهو
مآش آذ مسر مآذفبآ للسك الكهربآفف ففقال هذآ ففرفطرفق ! ! ففبف آآمله
آذآء وهو ففوصله لآبنف . فآء آف عوء السك وعلق ففبه آذآء وأسرف
آف العوء بقوله « آوصل هذآ لآبنف فلآز فف المكان الفلآفف » وذهب
مسر ورفآ بآطلاعف علف مسلك سهل بلآ مآه روف . ثم مسر من آء مففقذآ
مآ فمل السك بآذآء فوآء فف ذك المكان آذآء عفبآ آففآه الآفس
ففرآ و قال « آن آبنف لعاقل آفب آوسل فف الففم لآسآمفن بآ علف آمن
آآفد » فآنظر آف هذآ البلاهة آفف لو صدرف من آآء المشرفقف
لشنعوا بآبمع الآنس بآه و آشف ففبء عن المعآرف و ففهبب الآآلاق ،
(و قد صدق ظننه صدفقه لورء كر و مسر فآه شنع علف المشرفقف كآفة بآ
و قم من بفض ففلة سكة آآفد بمصر)

(ثم قال ففرم) « وآعلم آن مثل هذآ الرجل كآفر سفآف فف القرى الصغفرة
والآبال بل و فف آهل المدن كآفر ممن فففقذآ بآآرفآة البآطلة و فففقذآ
الآففر لآ آبآر و آآدآة ، و ففشآم بآ الآوقآة ، ففقدرف آفب فف كآفر من بلدآهم

وبلدان الظليان وكذا الانكيز طاقات في حيطان فيها منارات توعد ليلا بالزيت أو بالشمع السلي تقربا الى بعض اوليائهم أو الجن معتقدين حلول المتقرب اليه بتلك الطاقة . ولا ينورونها بغير ما ذكر من الانواع لان القسوس يقولون لهم ان شمع الشحم أو الناز من البدع التي لا يتقرب بها وكذلك يطلبون البخت وقضاء الحاجات من جمادات أو أما كن اعتقاد حلول ارواح فيها . وقد ذكر من هذا النوع في كشف الخبايا فنون أوروبا ما يتعجب منه السامع مما ترى الاورباويين ومن تشكل بشكاهم وتباهى بتقليد يحملون عبثه على البلاد الاسلامية وحدها ويجعلونها سخرية وينزهون أوروبا عن مثلها مع أنها حاوية لشبهها ولا شد منها بل ربما أسند ذلك الجاهل أو المتجاهل الى ديانتنا الشريفة وحاشا لله ان تؤدي أو ترشد لئلا ذلك بل انها هي المهدية والمنقذة من ضياع الجهل الى نور المعارف

الحائمة على العلم وفتح البصائر « اه بحروفه

هذا ما قاله عن اهل فرنسا وهم أسبق الاوربيين الى العلم والمدنية واذا كان أذهانا . على أنه قال ان الانكيز كذلك بل قال في كلامه من عادات الانكيز وصفاتهم مانعه :

« وأما أطوار الطبقة السفلى فهي أشنع مما مر ذكره في هيج الفرانسييس سواء كان من جهة الاعتقاد أو من جهة السيرة والحركات فيتطرون من أشياء كادت ان لا تحصى وينقادون الى السحرة والدجالين بما يخرج عن حد العقول وكاد التلم ان يكون عندهم مجهول الاسم فضلا عن المسحى سوى ما يرطن لهم القسوس في الكنائس » الخ

أقول اما خرافات القبور والاولياء التي قال انهم يعيرون الاسلام

بمثلا وهو منها بريء فقد أخذها المسلمون عنهم وهم أخذوها عن اجدادهم
أو مجاورينهم من الوثنيين فالاسلام والنصرانية الحقيقية بريتان منها وقد
قال صلى الله عليه وسلم « لتبين سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع »
قالوا يا رسول الله اليهود والنصارى ؟ - قال « فن ؟ » رواه الشيخان وغيرهما
وان تعجب فوجب مقارنته في هذا المقام بين الاوربي مطلقا والماي
المصري في الحساب فقد قال بعد ما تقدم ما ترجمته كما في التويد :
« وقارن أيضا بين تقدير الاوربي للحساب وبين للمصري المماي
الذي يشكل عليه إشكالا كاملا كل أمر يتعلق بالارقام أو الكمية فان عددا
قليلًا من عامة المصريين يعرفون عمرهم . فاذا سألت المصري عن عمر
رجل متقدم في السن يكون جوابه غالباً « ان عمر الرجل مئة سنة »
ويقول في نفسه ماذا بهم التدقيق في هذا الامر أو أي أمر آخر علمي ،
قلت ان هذا من مواطن العجب لان المقارنة فيه بين الاوربي
المتعلم والمصري المماي ولماذا لم يقارن في الحساب والارقام بين المتعلم من
التريقين ؟ لعله لانه يعلم ان المصريين من اقوى الشعوب استعداداً للبراعة
في الحساب وسائر العلوم الرياضية وقد أراد الانكليز منذ بضع سنين ان
يجلوا ترقية المهندسين منهم على المهندسين من المصريين مبنيًا على قاعدة
عادلة اظنهم ان الانكليز اعلم وأبرع فامتحنوا التريقين فاسفر الامتحان عن
فوز المصريين وتختلف الانكليز عنهم وسكت التريقان على ذلك الامتحان
فلم يعلموا به الجرائد . اما الانكليز فلما هو ظاهر واما المصريون فلخوفهم
ان يحق عليهم رؤسائهم ويتقدموا منهم
ومما يتقدم عليه في كتابه تقليده لغير واحد من كتاب الاوربيين في

آرائهم في الاسلام وكان أجدر من كثير من أولئك الكاتبين بمعرفة حقيقة الاسلام لو أراد أن يعرفه وينصفه فإنه عاش في مصر عمراً طويلاً وعرف أشهر علمائها بل أشهر علماء الاسلام المعروفين في العالم كله الآن وناهيك بالاستاذ الامام وطول باعه في علوم الدين ورسوخه في فهم القرآن وهو الذي لم يكن يحتاج في مخاطبته إياه وفهمه عنه الى ترجمان كما كان يحتاج في مخاطبة غيره من شيوخ الازهر . ولكنه لم يكن يسأله عن أصول الاسلام وحكامه وأحكامه ولا الاستاذ الامام كان يتدنه بشيء من ذلك وإنما كان يقصد اليه لاجل الكلام في المسائل المصرية لاسباب المحاكم الشرعية . وماذا كر لي عنه انه كان يذاكره مرة في اصلاح هذه المحاكم ومعارضة قاضي مصر وبعض الشايخ ومقلديهم في ذلك كما حصل في مجلس شورى القوانين وذكر اللورد كثره شكوى الاهالي من الظلم وضيق الحقوق في هذه المحاكم ولما بين له الاستاذ الامام انه ليس في اصل الشرع شيء ينافي الاصلاح العدل قال له اللورد هل تصدق يا استاذ انه يحظر في بالي ان شرعية قامت على أساسها مدنية عظيمة تكون غير عادلة ؟ كلا اني أعلم ان كل هذه المفاسد مسائل « الكيركية » اي من تقاليد المشايخ التي تشبه تقاليد رجال « الاكيروس » عند النصارى

أقول هذا بالمعنى كما احتفظه عن الاستاذ الامام واستطرد من ذلك الى انتقاد ما كتبه اللورد عنه ثم أخلص كلامه في الاسلام من حيث هو دين ومن حيث هو شرعية وأبين خطأه وخطئه فيه وانتقل من ثم الى المقصد الاعظم وهو مستقبل الاسلام والمسلمين ومراد اللورد وامثاله من أساطين السياسة وامانيهم في ذلك وما يجب علينا من العبرة

والعمل في هذا المقام ، مع تعدد السبل واشتباة الاعلام ،

قول اللورد في الشيخ محمد عبده

لم يسلك اللورد مسلك اصحاب التراجم من المؤرخين فيذكر ما للرجال الذين ترجمهم من الصفات والمزايا وما عليهم من التصير وإنما ألم بذكر بعض كبار الرجال المشهورين المأما ولم ينظر الى أحد من المسلمين بعين الرضى كما نظر الى الشيخ محمد بيرم التونسي على أنه مدحه بشيء يراه هو مدحا ويراه جميع المسلمين ذمًا اذ قال فيه «علمه ذكاؤه انطوري ان النظامات التي تطلق بها أسلافه (يعني الشريعة التي جرى عليها المسلمون السابقون) لا بد أن تلامي اذا قابلتها المبادئ السامية المرقومة على راية الانكليزي !! رأى كل هذه الامور بعين الناقد البصير » وقال بعد ذلك ان مثله اذا ناقش المسيحي في الامور العامة يكون من النتيجة المحزنة أنه « يكتني يندب مصير ذلك الدين الذي يحبه وذلك النظام المؤذي الذي اوجده دينه » ثم ذكر انه لا يوجد عند أمثال بيرم من خيار المسلمين طريقة قادرة على احياء الاسلام الذي هو في حالة الموت السياسي والاجتماعي !! ونحن نعلم فيما رأينا من مؤلفات الشيخ محمد بيرم وما سمعنا عنه ممن لقيه أنه كان متمسكا بهذا الفقه ويراه أحسن نظام ويعتقد انه مستمد من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فاذا كان مع ذلك يفضل عليه المبادئ والقوانين الانكليزية او يرى انه نظام مؤذ فكيف يكون راسخا ذلك الرسوخ في الاسلام ؟ أرى انه على إطراره ليوم في الدين قد ذمه من

حيث اراد مدحه ولم يعرف حقيقته الدينية كما هي ولا يرضي سر يدي الشيخ محمد عبده ان يكون مثله مرضيا للورد في ذلك وان كانوا يطمون انه لا يعد جميع هذا الفقه ولا اكثره من الدين . وانا نذكر الآراء في الورد في الاستاذ الامام في تقريره لسنة ١٩٠٥ ثم نشفعه برأيه في مصر الحديثة ونبين سبب الاختلاف بينهما

قوله فيه بتقرير سنة ١٩٠٥

اختلقت المنية في السنة الماضية رجلا مشهورا في الهيئة السياسية والاجتماعية بمصر أريد به الشيخ محمد عبده فأحببت أن أسطر هنا رأيي الراسخ في ذهني وهو ان مصر خسرت بموته قبل وقته خسارة عظيمة لما أتت مصر القاهرة سنة ١٨٨٣ كان الشيخ محمد عبده من المنضوب عليهم لانه كان من كبار الزعماء في الحركة العراقية . غير أن المنفور له الخديوي السابق صفع عنه طبعا لما اتصف به من الحلم وكرم الخلق فهين الشيخ بمد ذلك قاضيا في المحاكم الاهلية حيث قام بحق وظيفة القضاء مع الصدق والاستقامة وفي سنة ١٨٩٩ رقي الى منصب الافتاء الخطير الشأن فأصبحت مشورته ومعاونته في هذا المنصب ذات قيمة عظيمة ثمينة لتضلعه من علوم الشرع الاسلامي مع مابه من سعة العقل واستنارة الذهن واذكر مثلا على نفع عمله الفتوى التي أفتاها في ما اذا كان يحل للمسلمين تدمير أموالهم في صناديق التوفير فقد وجد لهم بابا به يحل لهم تدمير أموالهم فيها من غير أن يخالفوا الشرع الاسلامي في شيء أما الفئة التي يتبعي الشيخ محمد عبده اليها من رجال الاصلاح في الاسلام فعروفة في الهند أكثر مما هي معروفة في مصر ومنها قام الشيخ

الجليل السيد أحمد الشير الذي أنشأ مدرسة كلية في عليكده بالهند منذ ثلاثين عاماً . والناية المظن التي يقصدها رجال هذه الفئة هي اصلاح عادات المسلمين القديمة من غير أن يزعموا أن كان الدين الاسلامي أو يتركوا الشماز التي لا تخلو من أساس ديني . فعملهم شاق وقضاؤه عسير لانهم يستهدفون ذاتها لسهام نقد الناقدين وطمن الطاعنين من الذين يخافون بمضهم النية في النقد ويقصد آخرون قضاء اغراضهم وحك حزازات في صدورهم فيتهمونهم بمخالفة الشرع وانتهاك حرمة الدين أما سر يدو الشيخ محمد عبده وأتباعه الصادقون فوصوفون بالذكاء والنجابة ولكنهم قليلون وهم بالنظر الى النهضة المليية بمنزلة الجيروندست في الثورة الفرنسية فالمسلمون المتطعون المحافظون على كل أمر قديم يرمونهم بالضلال والخروج عن الصراط المستقيم فلا يكاد يؤمل أنهم يستميلون هؤلاء المحافظين اليهم ويسيروا بهم في سبيلهم . والمسلمون الذين تفرنجوا ولم يبق فيهم من الاسلام غير الاسم منقولون عنهم بهوة عظيمة . فهم وسط بين طرفين ، وغرض انتقاد الفريقين عن الجانبين ، كما هي حال كل حزب سياسي متوسط بين حزبين آخرين ، غير ان معارضة المحافظين لهم أشد وأهم من معارضة المصريين المتفرنجين اذ هؤلاء لا يكاد يسمع لهم صوت

ولا يدري الا الله ما يكون من أمر هذه الفئة التي كان الشيخ محمد عبده شيخها وكبرها فلزمان هو الذي يظهر ما اذا كانت آراؤها تتخلل الهيئة الاجتماعية المصرية أولاً . وعسى الهيئة الاجتماعية أن تقبل آراءها على توالي الايام اذ لا ريب عندي في أن السبيل القويم الذي أرشده اليه المرحوم الشيخ

محمد عبده هو السبيل. الذي يؤمل رجال الاصلاح من المسلمين الخير منه لبني
متهم اذا ساروا فيه . فأتباع الشيخ حقيقون بكل ميل وعطف وتنشيط من
الأوربيين . ولعلمهم يجدون بعض التنشيط من نقلي قولاً لرجل من اهل دينهم
وصف فيه المعارضة التي لقيتها مدرسة عليكده الكلية المذكورة آنفاً والطريقة
التي تطلبوا بها على تلك المعارضة» وههنا ذكر عبارة عن كاتب هندي اسمه
السيد محمود تضاوي عبارة في المقدار

ومما كتب في اواخر الفصل الذي يتكلم فيه عن المحاكم الشرعية ما ترجمته
« هذا واني أوافق السر ملكولم مكرث على ما قال عن الضربة
الثقيلة التي أصابت الاصلاح من هذا القبيل بوث المرحوم الشيخ محمد
عبده فقد أشرت الى خدمات ذلك الرجل الجليل في فصل آخر من هذا
التقرير وأعود فباسط الرجاء أيضا ان الذين كانوا يشاركونه في آرائه لا تخور
عزائهم بفقدته بل يظهرون احترامهم له كراه أحسن اظهارا بترقية المقاصد
التي كان يري اليها في حياته » اهـ

اما ما قاله السر ملكولم مكرث وصرح به اللورد بموافقته عليه فهذا
نص ترجمته

قول المستشار القضائي في الشيخ محمد عبده

« ولا يسفي ختم ملاحظاتي على سير المحاكم الشرعية في العام الماضي
بغير أن أنسلكم عن وفاة مفتي الديار المصرية الجليل المرحوم الشيخ محمد
عبده في شهر يولييه الثالث وان أبدي شديد أسفي على الخسارة المظيمة
التي أصابت هذه النظارة بفقدته فقد كان خير مرشد لنا في كل ما يتعلق

بالشرية الاسلامية والمحاكم الشرعية وكنا نرجع اليه كثيراً للتزود من صائب آرائه والاستعانة بمساعدته الثمينة وكانت آراؤه على الدوام في المسائل الدينية أو الشبيهة بالدينية سديدة صادرة عن سعة في الفكر كثيراً ما كانت خير معوان لهذه النظارة في عملها . وفوق ذلك فقد قام لنا بخدم جزيلة لا تقدر في مجلس شورى القوانين في معظم ما أحدثناه أخيراً من الاصلاحات المتعلقة بالمواد الجنائية وغيرها من الاصلاحات القضائية اذ كان يشرح للمجلس آراء النظارة ونياتها ويناضل عنها ويبحث عن حل يرضي الفريقين كلما اقتضى الحال ذلك وانه ليصعب تعويض ما خسره بموته نظراً لسمو مداركه وسعة اطلاعه وميله لكل ضروب الاصلاح والخبرة الخصوصية التي اكتسبها أثناء وظيفته في محكمة الاستئناف وسياحاته الى مدن أوروبا ومعاهد العلم . وكانت النظارة تريد ان تكل اليه امر تنظيم مدرسة القضاة الشرعيين المزمع انشاؤها ومراقبتها مراقبة فعلية . اما الآن فانه يتعذر وجود احد غيره حائز للصفات اللازمة للقيام بهذه المهمة ولو بدرجة قرب من درجته فلكل هذه الاسباب اخشى ان نظارة الحفانية ستظل زمناً طويلاً تشر بخسارتها بفقده « اه كلام المستشار

قول اللورد فيه بكتاب مصر الحديثة

أما الشيخ محمد فكان عالماً من طراز يفضل كثيراً طراز اخوانه الذين أشرت اليهم (كالسادات والبكري) وكان أحد زعماء الفتنة العرابية فلما جئت مصر سنة ١٨٨٣ كان منضوباً عليه ولكن الخديوي توفيق عفا عنه بما فطر عليه من مكارم الاخلاق وانقياداً تشبه بالانكار عليه في ذلك وعينه قاضياً حسن المنل وأدى الامانة حقها . وكان متوسماً في آرائه وعلى علم ونباهة فلم

ينكر المساوي الناشئة في الحكومات الشرقية وعرف انه لا بد من الاستعانة بالاوربيين للاصلاح الا انه لم يكن من عداد المصريين المتفرجين وكان يقول انهم لم يحسنوا تقليد ما حاولوا تقليده من الاخلاق الاوربية وكان عدوا للاخديويين والباشاوات وأريد بذلك انه لو عثر على باشاوات صالحين لما أعرض عنهم ولا عارضهم ولكنه لم يوفق الا الى عدد قليل من خيارهم مع اختباره الطويل . وحقبة الامر ان الرجل كان منطورا على الخيال ويرى آراء لا يمكن الجري عليها الا انه كان مع ذلك مصريا وطنيا حقيقيا ومن مصلحة الوطنية المصرية ان يكون أمثاله كثيرا ولكن اذا نظرنا الى نسيج محمد عبده والذين يعلمون تعاليمه من جهة امكان اتخاذهم ساسة للمستقبل نجد ان هناك بعض اوجه الضعف وقد قال المستر ستانلي لاين بول ان المسلم من الطبقة العليا لا بد ان يكون أحد اثنين « امام تعصب او ملحد في سره » فمثل هذه الحيرة على شكل مختلف قد أوجدت عقبات في سبيل المسيحيين الذين يؤمنون بحرفية تعاليم المسيح دون مضاهاها أنها عقبات أعظم للمسلم الاصيل الذي يبذل عناية كلية بحرفية تعاليم دينه دون مضاهاها وأخشى ان يكون صديقي محمد عبده في حقيقة امره « لا أدريا » ولو انه يستاء من هذه النسبة لو نسبت اليه . وكان مباشره ومخالطوه يعلمون بمقدرته ولكنهم كانوا يرمقونه شزرا ويقولون انه « فيلسوف » وكل من يدرس الفلسفة اي كل من يدرك الفرق بين القرن السابع والقرن العشرين هو في أعين المتسكين بالقديم سائر الى الهلاك لاجالة . هذا وان أهمية محمد عبده السياسية هي في أنه أسس مدرسة فكرية في مصر على مثال ما أسس في الهند سيد احمد

منشئ كلية عليكرة وغاية الدين يتتمون الى تلك المدرسة هي زكية طرق
الاسلام في عين الانساوا بالحري في عين الرجل المسلم ولكن شدة اشتباه
المسلم المحافظ فيهم واتهامه ايام بالمروق من الدين يمنعه من المسير معهم
طويلا وزاهم من الجهة الاخرى غالباً غير مترنحين الى حد ان يجذبوا
اليهم المصري المقلد للطرق الاوربية فهم أدنى من المسلم المحافظ في اسلامهم
وادنى من المصري المثالي في تفرنجهم ولذلك ترى مهمتهم عسيرة جدا
ولكنهم جديرون بكل تشجيع ومساعدة يمكن امدادهم بهما لانهم
حلفاء المصلح الاوربي الطبيعيون وسيرو كل مصري محبا لوطنه ان في
تقدم اتباع محمد عبده خير رجاء له في اتقاذ برجرامه الا وهو جعل مصر
مستقلة استقلالاً ذاتياً حقيقياً»

وقد طق الوردي في ذيل هذه الصحيفة قوله - اني قدمت لمحمد
عبده كل تنشيط استطعته مدة سنين كثيرة ولكنه عمل شاق ففضلا
عن العداء الشديد الذي كان يلاقه من المسلمين المحافظين كان لسوء
الحظ علي خلاف كبير مع الخديو ولم يتمكن من البقاء في منصب الافناء
لولا ان الانكاز ابدوه بقوة . وقد ائنت عليه في تقارير السنوية
ثناء عظيماً وأنا أعظم الناس أسفاً حقيقياً علي وفاته علي اني في الوقت نفسه
لا أرى بدا من الاعتراف بما عراني من الدهشة عند ما طالعت بعض
الابناء الجديدة في كتاب المستر ولفرد بلنت فيظهر ان المستر ولفرد بني
آراءه في المسائل المصرية علي ما سمعه من محمد عبده فقال عنه في كتابه
التاريخ السري انه فيلسوف كبير ووطني عظيم . وقد قرأت بدهشة وأسف
ما يبأني بلسان محمد عبده .

« عرض على الشيخ جمال الدين الفتك باسماعيل يوما عند مروره
 بربته يوماعلي كوبري قصر النيل فاستحسنت رأيه وواقفته ولكن الامر
 اقتصر على الكلام بيتنا ولم نوفق الى شخص يتولى تنفيذ هذا العمل »
 فكفاني أن أقول بعد هذا أن العالم المتمدن عموما ينظر شزوا الى الوطنيين
 ويحتقر بالاكثر اوائك الفلاسفة الذين لا يتأخرون عن تعزيز مقاصدهم
 السياسية بمثل ارتكاب القتل « اه من ترجمة المؤيد

المقابلة بين القولين

من قابل بين ما قاله اللورد في تقريره وما كتبه في كتابه مصر الحديثة
 يرى فرقا عظيما بين القولين فان عبارة التقرير لا ذم فيها ولا تعريض وعبارة
 التاريخ فيها ذم صريح ، وتعريض ظاهر بل المدح الذي فيها بمعنى ما في
 التقرير ضئيل مبهم يحتمل صرفه الى الذم في بعض المواضع فانه لما وصفه
 بالعلم فضله على السادات والبكري وهما لبسا من العلماء ولما ذكر انه متم
 بالفلسفة فسرد ذلك بالفرقة بين القرن السابع والقرن العشرين . وقد قال
 المؤيد في هذا التفاوت ما يأتي

« قضى المرحوم الشيخ محمد عبده من عمره بضع عشرة سنة وهو
 صديق مخلص للورد كرومر وقضى هذا اللورد زهنة الذي صادق فيه
 هذا الشيخ وهو يساعده في الوظائف ويدافع عنه فيها . ويقول الآن
 بصريح العبارة انه لولاه ما بقي في منصب الافتاء طويلا . كان اللورد
 يطرده مدحا في حياته كلما ذكر اسمه في مجلسه وكلما جاءت مناسبة لذكره

في تقاريره ويخيل لقارئ كتاب مصر الحديثة الآن ان اللورد يحاول ان يطن عليه أكثر من كل انسان في مصر لولا ما سبق له من المدح فيه . فلم هذا ؟؟

رأى المؤيد في صداقة اللورد للشيخ

« ان جواب هذا السؤال موجود بين سطور اللورد كرومر فيما كتب عن هذا الرجل في كتابه الاخير » .
ثم ذكر المؤيد في بيان ذلك انه كان من زعماء الثورة العراقية وأوضح ذلك وأكده وذكر قول اللورد ان الخديوي السابق عفا عنه بتشديد الانكيز عليه في ذلك ، وانه كان على خلاف كبير مع الخديوي ثم بين صاحب المؤيد رأيه وأضاف اليه كلمة طالما حاكت في صدره ونوه بها حتى نفضها اليوم فأراحنا وراح الناس قال مانصه:

« من خلال هذا الكلام يظهر الجواب الحقيقي وهو أن اللورد كرومر لم يكن صديقا للمرحوم الشيخ محمد عبده كما كان هذا صديقا مخلصا له ولكنه كان متمسكا بصداقته الظاهرية لانه كان يريد أن يضع في يده رجلا قوي المارضة لدود الخصام عدواً لتوفيق باشا أولا وخلفه ثانيا ولا سماعيل باشا قبل ذلك . ولا سرا في أن المرحوم الشيخ محمد عبده كان يكره طائفة الباشوات كما يقول عنه اللورد من جهة وكان وطنيا صادقا من جهة أخرى . فكان اللورد يحبه من الجهة الاولى ولا يستطيع أن يخلص له الحب من الجهة الثانية . لذلك كانت نظريته وهو ينتقم باطرائه . أما الآن وقد مات الشيخ محمد عبده وفارق اللورد كرومر

مصر فلم تكن تمت حاجة لان يداري اللورد فيه كل المداراة واننا لاحظ
 أن يداري نفسه لما كتب عنه أولا فيما كتب عنه انيا فجات كتابته هكذا
 خليطا من المدح والقدح وتوب الرياء يشف عما تحته

قول المؤيد في الشيخ نفسه

«وعندنا ان المرحوم الشيخ محمد عبده كان رجلا عالما فاضلا ذا خلال
 محمودة كثيرة من صفات النجدة والوفاء والمروءة ولا نقول كما قال اللورد
 عنه انه كان ملحدًا أو لا أدريا أو ضعيف الايمان لان الايمان من أعمال
 القلوب التي يستأثر الله بطهارها وأما ظواهره فكانت مجال مقال كثير لا صدقائه
 من جهة ولا أعدائه من جهة أخرى ولكنه كان على كل حال عالما مصلحا
 يحاول ما استطاع اصلاح الفاسد من الشؤون التي طرأت على الدين ويعمل
 لذلك بغيرة لا تقتر وفي آخر عهده من الدنيا كان يعتقد في نفسه اعتقادا
 ملا جوانحه أنه رسول اصلاح من عند الله فكان يجاهد في سبيل ذلك
 جهادا حقيقيا وان لم ينل حظ الثقة العامة بذلك . وأضنف الجواب في
 أعمال وآراء الشيخ محمد عبده كان الجانب السياسي منه فكان فكره السياسي
 خياليا غالبا كما قال اللورد لانه كان في كثير من الظروف ينجيل له أن
 يقبض بكتنا يديه على اللورد كرومر من جهة وعلى الجانب الخديوي من
 جهة فيفضل في الامرين معا حتى يقول الجانب الخديوي من جهته ما يقول
 فيه وحتى يضحك اللورد من هذا الضنف السياسي فيه

« هذه كلمتا في المرحوم الشيخ محمد عبده قلناها بحرية تامة في هذه
 المناسبة لنقول : ان كان اللورد أصاب في بفض ما قاله عن المرحوم الشيخ

محمد عبده فقد أخطأ في حقه مرتين الأولى في حياته لانه لم يكن يعضده
 ويساعده الا لفرض واحد وهو أن يكون هدواً حقيقياً دائماً للخديو
 فكان يدفعه دائماً الى الامام في ذلك والثاني أنه تعرض الآن للطعن على
 عقيدته والعقيدة مسكنها القلب خصوصاً وان الطاعن مسيحي على عالم
 مسلم فيما هو مسلم به

ولكن اللورد أراد من هذا الطعن شيئاً آخر وهو ان المسلم ان صار
 مصلحاً يوماً ما لم يستطع أن يكون كذلك الا وهو مارق من الدين حتى
 انه لما مدح الشيخ يريم وذكر من صفاته انه كان يحاول أن يطبق أحكام
 الاسلام على المعلومات المصرية قال عنه انه كان كمن يحاول أن يربح الدائرة»

قولنا فيما كتب المؤيد

اذا تنازع الكاتب فكران أو شعوران عند الكتابة في موضوع
 هو أصل في أحدهما والآخر فرع له فيوشك ان يذهله الفرع عن ام
 أركان الاصل كما وقع للمؤيد فوجب ان نبين ما دلت به المؤيد هنا
 حتى خفي عليه به خطأ اللورد الحقيقي لنفي الموضوع حقه فنقول

(١) ان الاساس الذي بنى عليه المؤيد تفرقه بين كلاسي اللورد
 في هذا المقام غير صحيح وهو ان اللورد كان يطري الشيخ في حياته اذ
 كان يتنعم باطرائه في دفعه لمداه الخديو، ثم ذمه بمده موته وخروجه هو
 من مصر لزوال هذه الحاجة . فان هذا الشاء العظيم في تقريره الذي ليس
 عندنا مدح منه سواء قد كتبه بمده موته واذا كان عند صاحب
 المؤيد رواية لسانية عن اللورد فهي لا تقوم حجة عليه ولا يصح مقابلتها
 بما كتبه اليوم الا ان يكون على سبيل التبع

(٢) ان كوز الاستاذ الامام كان من زعماء الثورة المرابية لا يصاح

سببا ولا جزء سبب لمساعدة اللورد إياه والا لمساعد سائر زعمائها

(٣) ان اللورد فسر بنص الشيخ محمد عبده للباشوات بأنه قلما وجد

فيهم صالحا وانه متى وجد الصالح لا يمرض عنه ولا يعارضه لصدق وطنيته

فوافقته صاحب المؤيد على كونه كان يكره الباشوات وعلى كونه كان

صادق الوطنية . ثم مثل بفضه للباشوات بمداوة الخديو الحال وايه وجده

ونحن لا نوافقته على هذا التمثيل الذي يوم الحصر . أما كرهه لاسماعيل

فمومعقول مهما كانت سنه ومعارفه السياسية في ذلك العهد وسندين ذلك .

واما توفيق فقد كان هو وأستاذه جمال الدين من حزبه وشيعته على أبيه وقد تقم

منه اخراج استاذه من البلاد ونفيه هو الى بلده وكان راضيا منه أتم الرضى

عند ما ساعد الوزارة الرياضية على الإصلاح في البلاد . ولما حدثت مبادي

الثورة المرابية كان الشيخ مقاوما للعرايين ولما استفحل الامر كان مرشداً

معتدلاً بحسب علمه وقد ظهر له في اثناء ذلك استعانة توفيق باشا بالانكليز

على العرايين فكرهه في اثناء ذلك كراهة شديدة كما يعلم من مذكراته

في شأن تلك الحوادث ومنها ان مذبح الاسكندرية كانت بايعاز من الخديو

ليثبت لاكترا وسائر الاوربيين محجز عرابي عن حمايتهم وقد كتب

برودلي المحامي عن العرايين شيئاً من هذا في كتابه نقلا عنه . وأما

العباس أيده الله بتوفيقه وعنايته فقد كان في اكثر مدة ولايته على مودة مع

المرحوم وهو الذي اقترح من نفسه جملة مستشاراً في الاستئناف وهو

هو الذي اختاره بنفسه متنيا للديار المصرية ولم يكن للورد دخل في رقي

الشيخ محمد عبده في الوظائف الاعدم المعارضة والفضل الايجابي في ذلك

للأمير وحده كما كان يصرح به الشيخ سرار آء ولكن حدث في السنين
الآخيرة بينهما شيء من سوء التفاهم بسعاية بعض المفسدين الذين يعرفهم
صاحب المؤيد أ كثر من غيره إذا كان يقاوم سعائتهم ومفاسدهم إلى أن غضب
هو أيضاً . وزاد سوء التفاهم تلك المسألة التي أشار إليها المؤيد في ترجمة
حسن باشا عاصم فقال ما معناه أنها مسألة كان يرى نفسه فيها قائماً بواجب
تعرضه عليه الذمة وكان يراه مولاه فيها متعتاً . - وله أن يقول مثل
ذلك في صديقه وشريكه فيها الشيخ محمد عبده . -

فمن هذه الخلاصة الوجيزة يعلم أن إظهار اللورد الصداقة للشيخ بضع
عشرة سنة لا يتأتى أن يكون المراد به دفعه في عداوة الخديو كما قال المؤيد . على
أنه كان أثبت من أن يدفع بيد اللورد أو غيره فقد كان في الذروة العليا
من الاستقلال في فكره وإرادته ونأهيك أيضاً بوطنيته وديانته . حقا
أقول أنني كنت أراه حتى في المدة الآخيرة التي تولى فيها سوء
التفاهم بينه وبين الأمير يمني لو يكون الأمير موقفاً مؤيداً في كل شيء
يرفع شأن البلاد ويفيدها مصنوعاً من كل شيء ضار وأنني سمعته غير مرة
يقول إننا كنا معلقون برجليه فإذا أهبطه الإنكاز درجة هبطنا تحته
لامعه ، وأنا كنا مرة نتحدث في استرضائه فأقسم بأنه لو أمره أن يخرج من
البلد لا مثل . ولكنه كان ينكر على المعية أموراً كثيرة ويمنى الوفاق الممكن
الذي لا يصحبه ضرر من جهة أخرى . على أن المؤيد استنبط من عبارة
اللورد أنه يحاول أن يطمئن على الشيخ أكثر من كل إنسان في مصر
لولا ما سبق له من المدح فيه فهل يكفي أن يكون سبب هذا هو الاستثناء
عنه بموته وخروجه هو من مصر ??

(٤) توجيه المؤيد قول اللورد في الاستاذ الامام انه كان خيالاً غير وجهه فانه جعل تأويل ذلك بعد التسليم به ان الاستاذ كان يخيل له ان يقبض بكتا يديه على اللورد من جهة وعلى الخديو من جهة فيفضل في الامرين . وهذا الاستنباط من خيال المؤيد ما أظن انه طاف بخيال اللورد اذا البعد بين الخيالن شاسع جداً . وخیال المؤيد وجهه ودليل من الخارج فان الشيخ رحمه الله كان يقرب من الامير للاستعانة به قبل كل شيء على خدمة دينه في نحو اصلاح الازهر ثم ابداء النصيحة الواجبة اذا عرض موجبها وكثيراً ما كان يعرض ذلك وقد سمعت من فم الامير في قصره بالقبة انه يستشير الشيخ ويحبه رأيه ويثق به . وكان أيضاً يختلف الى اللورد للاستعانة به على خدمة وطنه وما كان يطلب منها شيئاً لنفسه . ومن مصلحة البلاد ان يكون فيها رجال يثق أمير البلاد وعبيد الاحتلال معا بكفائتهم وصدقهم وذلك من الحقيقة لان الخيال

(٥) ذكر المؤيد في مواضع ان اللورد طعن في دين الشيخ عبده وعمله لا أدرياً أو ملحداً حتى ان من قراء عباراته ولم يكن عارفاً بكلمة اللورد يظن انه جزم بهذا الطعن واللورد لم يجزم بذلك وإنما قال « أخشى » كما في ترجمة المؤيد نفسه ، أو « أظن » كما في ترجمة بعض الجرائد فوجب علينا ان نبين ذلك

(٦) قال المؤيد انه لا يظن في ايمان الشيخ لان الايمان محله القلب وان ظواهره كانت مجال مقال كثير لاصدقائه ولاعدائه . فنقول انا نحن نوافق المؤيد على قوله ان الايمان من أعمال القلوب التي يستأثر الله بعلمها ويؤيد هذا القول الحديث الصحيح « هل شققت عن قلبه » لمن

قال يارسول الله اعط فلانا فانه مؤمن . ولكن المؤيد وقع في الحكم على القلب الذي انكره على اللورد اذ قال « قضي المرحوم الشيخ محمد عبده من عمره بضع عشرة سنة وهو صديق تخلص للورد كروبر » فالخلاص كالايمان محله القلب ولا يمكن ان يطلع عليه الا الله تعالى فكيف أجاز المؤيد الحكم على القلب مرة ومنعه أخري؟

أما الظواهر التي تدل على قوة ايمانه فهي اقوي من الظواهر التي تدل على اخلاصه في صداقة اللورد مع العلم بانه كان ابدا الناس عن النفاق والرياء فانه لم يعمل للورد عملا خاصا به أو بدولته ولكنه وقف حياته على خدمة مصر والاسلام ابتغاء مرضاة الله . والمؤيد وان كان قد ادخل في مسألة الظواهر كلمة محتملة ككلمة ابي سنيان لم يقل فقال انها كانت مجال مقال كبير - قد قال من نفسه مقالا جازما هذا نصه :

« ولكنه كان على كل حال عالما يحاول ما استطاع اصلاح الفاسد من الشؤون التي طرأت على الدين ويعمل لذلك بغيرة لا تقتر . وفي آخر عهده من الدنيا كان ينتقد في نفسه اعتقادا ملاً جوامعاً أنه رسول اصلاح من عند الله فكان يجاهد في سبيل ذلك جهادا حقيقيا وان لم ينل حظ الثقة الملمة بذلك » فالذي ينتقد هذا الاعتقاد لا يمكن ان يكون ملحدا او لا ادريا اي شاكا في وجود الله يقول لا أدري أهو موجود ام لا ؟

صديق المؤيد وان كان في تعبيره بلفظ «رسول اصلاح» غرابة لما لها من المعنى الشرعي الذي ليس بمراد هنا . فان الاستاذ الامام كان ينتقد ان دين الاسلام لا بد ان يعود اليه مجده ونوره الذي حال دونه

ظلام البدع والخرافات والتقاليد والمادات وانه هو عالم بحقيقته وبكيفية
تسرب البدع اليه وقادر على بيان ذلك وازائته بالحجة وان هذا العمل فرض
محم عليه . وقد نمر هذا الاعتقاد عقله وقلبه ومملك جنانه ووجدانه
فبذلك كان يرى انه كان ملهم ومستخر من الله تعالى لهذا العمل ليس في
استطاعته ان يتوانى فيه . وقد ذكر قاسم بك امين في تأييده ان بعض
اصدقائه كانوا يلومونه على تفریطه في صحته وتعبه في بعض الاعمال التي
قلما تأتي بما يتوخاه من الفائدة فيها فيهدمهم بالتخفيف ولاكنه يصبح في الغد
اشداهما وعناية مما كان عليه بالامس . وصدق المؤيد في قوله انه لم ينل
حظ الثقة العامة باصلاحه اذ لو نال هذا الحظ لما قال لورد كرومر في الاسلام
ما قاله اليوم لأن الاصلاح العملي كان يمنعه من ذلك

رأينا في سبب اختلاف قولي اللورد

قال المؤيد ان الجواب عن التفاوت بين كلامي اللورد المذكور في
كتابه وقد صدق في هذه ولكن اخطأ اجتهاده فيما بينه به اذ لا اجتهاد
في مورد النص . اما هذا النص فهو في موضعين ذكر أحدهما المؤيد
فيما ترجمه من كلام اللورد في الشيخ وأهله في الرد وأغفل أحدهما في
الموضعين . اما الذي ذكره وأهمله فهو هامش اللورد^(١) الذي يذكر فيه
دهشته من استمداد مستر بنت اخبار تاريخه السري للاختلال من محمد عبده
وفي هذا الكتاب من التشنيع على اللورد وسياسته ما فيه . واما الذي اغفله المؤيد
فدونك ترجمته نقلا عن حاشية ص ٥٢٤ من المجلد الثاني في سياق الكلام عن
المعارف : « لقد دهشت بل اعترتني خيبة أمل عندما قرأت في كتاب ألفه

مسيو جورفيل رسالة للشيخ محمد عبده أعطي فيها ذلك الرجل الشهير رجاحة اسمه «أوقرة اسمه» لتهم أو تبريحات من هذا النوع ولا بد أنه كان على يقين من أنها لا أساس لها . وكنت أرجو منه أفضل من هذا « اه علق هذا على هامش معناه هل نظر الانكليز الى انحطاط المصريين السياسي أو الاجتماعي نظر المتعيط فلم يحاولوا ترفيتهم كما يزعم بعض منة الناقدين ؟ ونحن نقول ان الرجل لم يبط اسمه لترويج التهم أو التبريحات كما ظن اللورد وإنما أراد الموعدة والتبويه الى الصواب الذي يمتدده ولكن صاحب الكتاب استخدم اسمه لترويج كتابه وهو ما كان يقول الاما يعلم تمام العلم ان أنه صحيح كل الصحة . واذا كان اللورد يرجو منه يوم كتب تلك الرسالة الى جورفيل أمرا أفضل من هذا فهو أيضا ربما كان يرجو من اللورد قبيل ذلك أمرا أفضل مما رأى منه عند الحاجة الى مساعدته في أهم وأفضل عرض له من حياته . وانا نورد الآن ما جاء في رسالة الاستاذ الامام عن المعارف وهو :

ما كتبه الاستاذ الامام لجورفيل عن المعارف

(التعليم العام) لا تنفق الحكومة المصرية على التعليم العام الامبلغ مئتي ألف جنيه مع ان في وسعها اتفاق اكثر منه لان دخلها قد بلغ في الميزانية اثني عشر مليوناً من الجنيهات وهي لا تنفق عن زيادة اجور التعليم التي نتقاضها من الناس على تعليم اولادهم من حين الى حين وقد بلغت من ذلك الى حد ان صارت تربية الاولاد عبأ ثقيلا حتى على أوساط الناس واذا استر هذا التزايد أمسى التعليم زخرفا لا يتسنى التعلي به الا في بيوت

الاغنياء فقط ومن المبادئ التي يجري عليها القابضون على ازمة امورنا ان لاحق لاولاد الفقراء في نوع ما من التعليم فهم يجاهرون به كل المجاهرة ويبدو منهم على الدوام في حديثهم ونقاريرهم وكتبهم .

نعم انه من المسلم الي حد محدود ان الوالد الذي يخصص جزءاً من دخله لتربية اولاده يهمل ان يحصل من التربية على مقابل هذا الجزء وانه يراقب ولده في التعلم مراقبة فعلية ليحماه على الاستفادة من تعليم يكلفه كثيراً من النفقات ولكن الذي لا يسلم به أحد ولا دليل عليه من التجربة هو ان يستنج من هذا ان كل تعليم مجاني يكون عقيماً فانه مما تبني ملاحظته ان التعليم في المدارس المصرية من عهد محمد علي (باشا) الى سنة ١٨٨٢ كان مجانياً في كل هذه المدة ولم يمنع هذا ان تنتج تلك المدارس عدداً من الرجال المتعلمين تعلماً حقيقياً وممظماً من الفقراء ولم يضر اوريا ان التعليم مجاني في كثير من البلدان ولكن أي فائدة لنا من الاستشهاد بما غير من الاختبار في مصر وما حضر من الاعتبار باوريا مادام الذين ييدم مقاليد حكومتنا مصممين على ان لا يقبلوا الا ما يهديهم اليه فكفرهم

يشق على الانسان ان يرى كل سنة مشهد توارد الآباء والامهات على نظارة المعارف يقودون صغارهم اليها سائلين التصديق عليهم يقبولهم مجاناً في مدارسها معتدزين بفقرهم ومدلين بما يكون بعض افراد اهلهم قد أدوه الى الحكومة من الخدم مؤملين على الدوام ان العناية الالهية والرحمة القلبية تلين صلابه ذلك المبداء ولو صرة واحدة ولكنهم يضطرون في آخر الامر الى الرجوع الى بيوتهم أو الى قرانم خائبين خائري الغزائم غير راضين لا يدرون ماذا يفعلون بهؤلاء الابناء الاعزاء الذين تمنوا لهم اماني كثيرة

ما حيلتنا؟ يقولون لنا «ان بن ظهرا نيك من أبناء وطنكم اغنياء في وسمهم
إنشاء مدارس مجانية للفقراء»

آه وأسفاه! نعم ان أبناء وطننا في وسمهم القيام بهذا العمل وبأحسن
منه ولكن مصر لما يوجد فيها محبون للانسانية وأخص من بينهم محبي
الانسانية المستيرين، قد يوجد احيانا بعض منهم يشيدون مساجد لا
حاجة اليها لكثرتها عندنا وببعض آخر يقف جزءا من عقاره على ولي
ولكن همه الناس وانباطها الى العمل لم توجه نحو التعليم فأمتنا أقامت
زمننا طويلا تعتمد على الجماعة في كل شيء ومن أجل كل شيء

أما اذا نحن نظرنا الى هذا التعليم الذي تقوم به الحكومة المصرية
من جهة قيمته فأننا نضطر الى القول بأنه قليا يكون رجلا في قدرته ان يمارس
حرفة تقوم بمعيشته ويستحيل ان ينشئ عالما أو كاتباً أو فيلسوفاً فكيف بالتواضع
في شيء من هذا

وليس للتعليم العالي بمصر سوى مدرسة الحقوق ومدرسة الطب
ومدرسة الهندسة . اما جميع العلوم الاخرى التي تتألف منها معارف
الانسان فالمصري قديماً خدمنا ببعض معلومات سطحية في المدارس التجريبية
ولكن يكاد يكون من المتعذر عليه ان يدرسها دراسة وافية بل يقضى عليه
غالباً ان يجهد - فعلم الاجتماع بفروعه التاريخية والاخلاقية والاقتصادية
وعلم الفلاسفة القديمة والحديثة وعلم آداب اللغة العربية واللغات الاوربية
وكذلك الفنون الجميلة لا تعلم بالكلية في مدرسة ما من المدارس المصرية
فكان فينا القضاة والمحامون، والاطباء والمهندسون، ممن تختلف
درجاتهم في العلم ولكننا لا نجد في طبقة منهم ذلك الباحث ولا ذلك المفكر

ولا ذلك الفيلسوف ولا ذلك العالم ولا ذلك الانسان الذي يمتاز بمد
الفكر والنظر وبشهادة الفؤاد وكرم السجايا الذي أوقف حياته كلها على
السي وراه مطلب من مطالب الكمال
وصفوة القول ان خطة الحكومة التي رسمتها لنفسها ويظهر انها
مصممة على ان لا تجرد عنها تلخص في أمور ثلاثة (أولها) مساعدة
التعليم الابتدائي في المدارس الصغيرة المسماة بالكتاتيب حيث تعلم الكتابة
والقراءة وقواعد الحساب الرابع (ثانيا) التقليل من نشر التعليم في الامة
ما أمكن (ثالثا) حصر التعليم الثانوي والتعليم العالي في اضيق الدوائر
المصريون موقنون بأن من ييدهم مقاليد أمورهم العمومية لا يعملون
كل ما في وسعهم لترقية الناشئين اخلاقا وعقولا وهذا الرأي مما يدعو
الى الاسف والاسى من جميع الوجوه فانه سيحدث في الرأي العام تياراً
من الاستياء ان لم يكن عاجلاً فآجلاً وليت شعري ماذا يرجح الانكسار
من التماهي في ترك هذا الاعتقاد راسخا في النفوس ، واذا كان ثمة أمر
يصح ان يتلاقى فيه الطرفان ويكون قاعدة للاتحاد فالتعليم العام اذ لا يمكن
ان يوجد تناقض بين مصلحة الانكسار ومصلحة المصريين في هذا المقصد
فن أراد استدرا ما في مصر من المنافع والخيرات فسبيله في ذلك
ان يبنى بتعهد كل ما فيها من موارد الثروة وان يبدأ بالانسان بكل ما فيه
من مماتي الانسان فلا بد من امتزاج العنصرين الاوروبي والوطني واخذها
على التكاتف في السير نحو هذه الغاية يدا بيد
ولعمري ان الانكسار ليسيون الى انفسهم اذا اوهنوا الاهلين وارخصوا
من قيمتهم وصنروا من شأنهم قائما مصاحبتهم في ان يكون ابناء هذا الوطن

اعزاء اغنياء احراراً فان موارد الثروة والخير للانكليز منوطة بما يصيبنا من ثراه ورخاءه

هذا ما جاء في رسالة الشيخ محمد عبده لجورفيل عن المعارف ويلييه كلام عن الحقانية ومعاملة الانكليز للموظفين المصريين ملخصه انهم يتمسكون ضعيف الارادة الذي يخضع لهم في كل شيء ولا يناقشهم في عمل ما ويقصون المستقلين في الفكر والارادة . وان كل رئيس منهم يعد نفسه مشترعا فكما خطر له استبدال قانون بقانون وضع قانونا جديدا وأنفذه لان مجلس النظار لا استقلال له فيناش أو يمارض ومجلس شورى القوانين ليس له الا حق بيان الرأي والحكومة غير مكلفة الاخذ بقوله على ان فيه من الضعف ما فيه لان الافراد الذين يصاحون فيه للبحث قليلون

فأي شيء من هذه الرسالة ينكر اللورد لنثته له ؟ اما انه لا ينكر منها شيئاً ولكنه عز عليه ان يرى في كتاب أوربي كلاما في عيوب ادارة مصر لرجل معروف بالصدق وعلو المكاتبه عند الاوربيين ولذلك قال انه أعطى رجاحة اسمه لجورفيل الخ

ان اللورد نفسه قد اعترف كتابة بأن المعتدلين الذين سماهم حزب أو أتباع محمد عبده لم يشجعوا كما ينبغي وقال في تقرير سنة ١٩٠٥ ان تعيين سعد باشا زغلول في الوزارة وهو أشهرهم انما هو تجربة . فهل له ان يقول مع ذلك ان ما كتبه الشيخ لموسيو جورفيل لا أساس له في اعتقاده ؟

لقد كان هو وجميع أهل الرأي في مصر يمتقدون حقية ما كتبه وهذا الاعتقاد لا يزول الا بعمل ينقضه فاذا كانت الحكومة الاحتلالية مخلصة فيما فعلت وتفعل لمصر وكان ما ذكره الشيخ من عيوب ادارتها غير متعمد

منها فلتتداركها بمساعدة المستقلين من المصريين ولا يسر عليها الا هتداء اليهم
 أما ما قاله الشيخ في رسالة عن المعارف فانه ما هو حكاية عن
 اعتقاد المصريين واستيائهم وهو مؤيد بما تذكره جميع الجرائد آناً بعد آناً
 وبما ظهر في مجلس الشورى والجمعية العمومية فكيف يقول اللورد انه
 لا أساس له؟ ألم ينبأ بما جرى في هذا العام - حتى بعد ان قام ناظر المعارف
 بهذه النهضة الجديدة في ترقية التعليم من جهات متعددة - من قيام قيامة
 التلاميذ والعجرائد والناس على مستر دنلوب بما كان قد ازدحم في مراكز
 الفكر والشعور من سوء حال الماضي . ان لم يكن قد ظهر به مصداق قول
 الشيخ انه سيحدث في الرأي العام تيار استياء عام من حال التعليم عاجلاً أو
 آجلاً فان ما ظهر قريب منه ولولا هذا الاصلاح الجديد لظهرتم الظهور
 اما باقي كلام الشيخ فهو حكاية عن سياسة المختلين في التعليم وهو
 مؤيد بما كتبه اللورد في تقرير تلك السنة فانه قال (كما في ص ١٣٣ وما بعدها
 من النسخة العربية لتقريره عن سنة ١٩٠٥)

«يراد بهذه السياسة ابطال التعليم المجاني تدريجاً من المدارس الاميرية
 التي هي فوق الكتابية وزيادة الاجور فيها .» ثم احتج على ذلك بكون
 الفرض منها تعليم التلاميذ تعليماً أورياً لكي تعد جمهوراً من الشباب
 المصريين لخدمة الحكومة ولتطابق بعض الفنون . ثم ذكر ان محمد علي
 انشأ هذه المدارس لفرجة البلاد وان عباساً الاول ألفاها بعد ان خرج
 منها ما يزيد على عدد الوظائف وأعادها اسماعيل لفرجة البلاد كما كانت
 وانها كانت مجانياً بل كان التلاميذ فيها يأكلون ويأخذون مرتبات واطهر
 استعسان ذلك من قبل والاستغناء عنه الآن ثم قال « ويجب على الحكومة

ان تتوخى جعل اجرة التعليم في كل مدارسها المتفرجة مقاربة للنفقات التي تنفقها عليه . والاموال التي تنفقها على هذه المدارس تصير تنفقا على التعليم الاهلي الا لزم حاجة الامة ، ويعني بالالزم لحاجات الامة تعليم الكتاب والصنائع فقط وهذا ما لا يسلم به مصري قط

ثم ذكر ان الانكليز لما احتلوا البلاد وجدوا ان كل ما تنفقه المعارف العمومية « انما تنفقه على تعليم اولاد فئة صغيرة أكثرها من اغنياء السكان ولا تعلمهم الا تعليما اوريا فأخذوا في تغيير تلك الحال وبذلت الهممة منذ سنة ١٨٨٤ لاخذ الاجور من التلامذة ولا يبال التعليم المجاني تدريجا ولكن بقي النجاح في هذا السبيل بطيئا جدا الى عهد قريب » ثم استدل بذلك على « ان ابطال التعليم المجاني وازدياد اجرة التعليم ليسا من دلائل التأخر ولا هما مضران بمصلحة البلاد الحقيقية بل هما بمثابة ابطال امتياز » الخ فكيف يقول اللورد مع هذا ان الشيخ كتب ما يعلم انه لا أساس له ؟ سبحان الله كأن الشيخ كان يكتب سنة ١٩٠٥ لجورفيل في الوقت الذي كان اللورد يكتب فيه لناظر خارجتهم ما يؤيد قوله ألم تر ان الشيخ قد كتب انهم يعني ولاية الامور يقولون لنا ان فيكم اغنيا يجب ان ينشئوا المدارس المجانية للفقراء ، وان اللورد كتب في تقريره (ص ١٣٥ و ١٣٦) « واذا أريد تمهيد السبل للتلامذة الذين تبدو عليهم مخايل النجابة الفائقة لكي يدخلوا المدارس العليا ووسائطهم المالية لا تكفي لذلك وجب ان يقف المحسنون اموال تلك المدارس التي يعلم بها من كان مثل اولئك التلامذة ووقف هذه الاموال لتعليم التلامذة الفقراء الذين يستحقون ان يساعدوا انفع جدا من تكثير المدارس الابتدائية المتفرجة » (للكلام بقية)

وعاشم افندي سر كيس السوريين بمصر وغيرها الى الاكتاب للاحتفال بحافظ افندي ابراهيم الذي ينوه بفضلهم ليكون هذا الاحتفال توددا من شعب الى شعب ما بمنزلة الشقيقين. فلي الدعوة كثيرون وبدا تنهء مدة الاكتاب اقيمت الحفلة بندق شبرد وحضرها مع جمهورا لاكتئين كثيرون من وجهاء وادباء المصريين واصحاب الجرائد وكان ترتيبها هكذا افتتح الاحتفال سليم افندي سر كيس ببيان الفرض منه 'خطب سليمان افندي البستاني في الشعر والشعراء' انشد تقول افندي رزق الله قصيدة «مصر وسوريا» خطب سليم بك باخوس في اكرام الرجال للرجال: تلقت قصيدة للأمر شيكيب ارسلان خطب اسما عيل بك عاصم انشد امين افندي البستاني قصيدة له خطب رفيق بك العظم تلقت قصيدة لاسعد افندي رستم قرىه كتاب في تحية الصحافة للشعراء المرسل من ادارة جريدة صاغة الحرب بنبو يورك انشد الدكتور ابراهيم افندي شادودي قصيدة له وقدم سليم افندي سر كيس لحافظ افندي هدية رواق المرعي في البرازيل وهي قلم من الذهب بشكل الريشة ثم الهدية الاكرامية من مجموع السوريين وهي دواقر مقلمة من الفضة. وختمت الحفلة بقصيدة الشكر من حافظ وهي

لمهر ام لربوع الشام تنسبُ هنا الطي وهناك المجد والحسبُ
 ركنان للشرق لا زالت ربوعهما قلبُ الهلال عليها خافقٌ يجب
 خدران (الضاد) لم تهتك ستورها ولا تحوّل عن معناها الادب
 أم اللغات غداة الفخر أمهما وان سألت عن الآباء فالعرب
 ايرغيات عن الحسى وبينهما في راثات المالي ذلك النسب
 ولا يمتان بالقربى وبينهما تلك القرابة لم يقطع لها سبب
 اذا ألت بوادي النيل نازلة بات له راسيات الشام تضطرب
 وان دعا في رى الاهرام ذو ألم اجابه في ذرى لبنان متعجب
 لو أخلص النيل والأردن ودّها تصاحفت منهما الأمواه والغشب
 بالواديين تمشى الفخر مشيته يحنُّ ناحيته الجود والدأب
 فسأل هذا سخاه دونه ديمٌ وسأل ذلك مضاه دونه القضب
 نسيمَ لبنان كم جادتك عاطرة من الرياض وكم حياك منسكب

في الشرق والغرب انقاس مسرّة
 لو لا طلاب العلاء لم يتغو بدلاً
 كم غادة بزوع الشام باكية
 عفي ولا حية إلا عزيمته
 يكرّ صرف الليالي عنه منقلباً
 بارض (كولب) ابطال غطارفة
 لم يحسب علم فيها ولا عدد
 اسطولهم امل في البحر منحل
 لهم بكل خضم مسرب نهج
 لم تبد بارقة في أفق منتجع
 ما عيبتهم أنهم في الارض قد ثروا
 ولم يضرهم سراء في مناكبها
 رادوا المناهل في الدنيا ولو وجدوا
 أو قيل في الشمس للراجلين منتجع
 سمو الى الكسب محموداً وما فتئت
 فأين كان الشأميون كانت لها
 هذي يدي عن نبي مصر تصافحكم
 فما الكناة إلا الشام عاج على
 لولا رجال تفالوا في سياستهم
 ان يكتبوا لي ذنباً في مودتهم

تهو اليك واكبادها لها
 من طيب ريك اكن العلاء تعب
 على أليف لها يرمي به الطلب
 وينثني وحلاه المجد والذهب
 وعزمه ليس يدري كيف ينقلب
 اسد جياح اذا ما ووثبوا وثبوا
 سوى مضاه تحامى ورده الثوب
 وجيشهم عمل في البر منترب
 وفي ذرى كل طود مسلك عجب
 الأ وكان لها بالشام مرتقب
 فالشهب مشورة مذ كانت الشهب
 فكل حي له في الكون مضطرب
 الى الحجر ركباً صاعداً ركبوا
 مدوا لها سببا في الجوا واتدبوا
 أم اللغات بذاك السعي تكنسب
 عيش جديد وفضل ليس يحتجب
 فصاخوها تصافح نفسها العرب
 ربوعها من بنيا سادة تب
 منا ومنهم لما لنا ولا عتبوا
 فاما الفخر في الذنب الذي كتبوا